ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

جوانب حضارية لبعض مدن الجزيرة العربية
من خلال الأدب الجغرافي والرحلات في العصر الوسيط

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش

أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب – جامعة مولاي إسماعيل
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يسلط هذا البحث الضوء على بعض المشاهد الحضارية لمدن شبه الجزيرة العربية، اعتمادًا على الأدب الجغرافي الذي تجاوزت مساحة المعلومات التي يقدمها حول هذا الموضوع المساحة الضئيلة التي خصصتها المدونات التاريخية. وقد ركزت الدراسة على نماذج من المدن الواقعة في شرقي الجزيرة العربية مثل: الأحساء، وهجر، والقطيف، والبحرين، وصحار، وقلهات. ركّز البحث في القسم الأول على دور كتب الأدب الجغرافي في تحديد مواقع المدن المذكورة ومجالها العمراني. وتوصل استنادًا إلى المادة النصية المتناثرة فيها إلى تحديد مواقعها على خطوط الطول والعرض، وضبط أسمائها، وفك اشتقاقاتها اللغوية. ورغم شح النصوص الخاصة بالمجال العمراني لمدن شرق الجزيرة العربية في المتون الجغرافية والرحلات، فإن ما هو متوفر سمح بإلقاء شعاع من الضوء على هذا الجانب خاصةً أسوار المدن وأبوابها، والخنادق المحيطة بها. كما أتاح الوقوف على الدور والمنازل ومواد البناء، فضلاً عن المعالم الرئيسة للمعمار الديني، والكثافة السكانية داخل بعض المدن مدار البحث. وتصدى البحث في القسم الثاني لمعالجة الثروات الاقتصادية لمدن شرق الجزيرة العربية، مما سمح بالتعرف على المشهد الزراعي، والموارد المائية والنشاط الرعوي. كما مكّنت النصوص الجغرافية من رصد الحرف والصناعات، وتحديد مسالك الطرق التجارية البحرية والبرية، والمسافات الفاصلة بينها، وتحوّل بعض المدن إلى موانئ للتبادل التجاري، وإلى أسواق داخلية مزدهرة. هذا إلى جانب ما أبانت عنه من معطيات حول الضرائب، وقضايا اجتماعية أخرى سكتت عنها المدونات التاريخية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١١ فبراير ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٩ مايو ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

الأحساء، قلهات، البحرين، القطيف، صحار، تاريخ الجزيرة العربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إبراهيم القادري بوتشيش. "جوانب حضارية لبعض مدن الجزيرة العربية من خلال الأدب الجغرافي والرحلات في العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ٩ – ١٩.

مُقَدِّمَة

لعبت مدن شرق الجزيرة العربية أدوارًا حضارية متميزة على كافة المستويات الاقتصادية والعمرانية والمعرفية. ومع ذلك؛ فإن هذه الأدوار ظلت مهمشة وغير مكتملة في المدونات التاريخية التي طغى فيها الجانب السردي لوقائع التاريخ السياسي على حساب المنجزات الحضارية، إذ لا يكاد الباحث يظفر في هذا الصدد سوى بإشارات باهتة، وشذرات متفرقة لا تسمح بتجاوز مستوى الإبهام والغموض اللذان يلفان المشهد الحضاري لتلك المدن، مما يفرض على الباحث الالتجاء إلى مصادر أخرى لسدّ هذه الثغرة التي خلفتها المدونات التاريخية. في هذا السياق، يأتي الأدب الجغرافي وكتب الرحلات كمصادر تسعى إلى كشف النقاب عن بعض الجوانب الحضارية التي تختزنها ذاكرة تلك المدن، وسنركز في هذه الدراسة على نماذج من مدن شرق الجزيرة العربية مثل: الأحساء، وهجر، والقطيف، والبحرين، وصحار، وقلهات، محاولين استخراج بعض الجوانب الحضارية التي ميزت هذه المدن، خاصةً في المجال العمراني والاقتصادي والاجتماعي.

أولاً: تحديد مواقع مدن شرق الجزيرة العربية ومجالها العمراني

تحوي كتب الأدب الجغرافي والرحلات نصوصًا هامة –رغم ضآلتها- حول مواقع مدن شرق الجزيرة العربية، خاصةً أن هذه الكتب تميزت عن غيرها من المصادر الأخرى باهتمام مؤلفيها بضبط أسماء المدن واشتقاقاتها اللغوية، وكذلك مواقعها بالنسبة لخطوط الطول والعرض، إلى غير ذلك من المعطيات المفيدة التي توفرها للباحث.

١/١- ضبط أسماء مدن شرق الجزيرة العربية وتحديد مواقعها:

فيما يتعلق بضبط أسماء مدن شرق الجزيرة العربية واشتقاقاتها اللغوية، يقدم ياقوت الحموي[١] مادة دقيقة في هذا المجال، فهو يضبط اسم **مدينة الأحساء** بالفتح والمدّ، ويذكر أن هذا الاسم جمع حسي بكسر الحاء وسكون السين، ويفسر اشتقاقه اللغوي من الماء الذي تنشفه الأرض من الرمل. ولتدقيق التعريف بهذه المدينة، يميز بينها وبين مجموعة من المدن التي تسمى أيضا بالأحساء كأحساء بني سعد وغيرها. وفي المنحى نفسه، يشير أبو الفدا[٢]. إلى أن اسم الأحساء جمع حسا وهو رمل يغوص فيه الماء. والراجح أن هذا المصطلح – الحسا - في صيغة المفرد قد شاع في بعض الفترات التاريخية، حيث استعمله الرحالة ابن بطوطة[٣] في القرن (٨ هـ/ ١٤م) للدلالة على تلك المدينة التي زارها شخصيًا.

أما **مدينة القطيف** فقد وقع اختلاف بين الجغرافيين في ضبطه اسمها، فبينما يضبطه ياقوت الحموي[٤] بفتح القاف وكسر الطاء، مرجحًا أن مصطلح القطيف أطلق على كورة قديمة هناك، فغلب عليها وسميت باسمه، فإن ابن بطوطة يضبطه بضم القاف وفتح الطاء وسكون الياء "كأنه تصغير قطف"[٥] على حد تعبيره.

وفي السياق نفسه، يحرص الحميري[٦] على ضبط **مدينة هجر** بفتح الهاء والجيم، وعدم نطق الألف واللام. ويشترك مع ياقوت الحموي في نسبة اسم هجر إلى هجر بنت المكفف؛ بيد أنه يخالفه في الإقرار بأن هذه الأخيرة تنتمي إلى سلالة العماليق كما ينص على ذلك ياقوت الحموي الذي نقل عن ابن الكلبي فكرة أن هجر من العرب المتعربة، وأنها زوجة محلم بن عبد الله صاحب النهر الذي يوجد بالبحرين.[٧] ويضيف الجغرافي نفسه مجموعة أخرى من الفرضيات حول اشتقاق اسم هجر منها أن يكون من فعل هجر إذا هذى، لكن في هذه الحالة فإن اسم هجر ينبغي أن تكون هاؤه مضمومة بحكم أن ياقوت نفسه ضبط مصطلح الهجر (بضم الهاء) ومعناه الهذيان[٨]، وهو ما لا يستقيم مع ما ضبطه سلفا من فتح هاء هجر. ويجوز أن يكون من الهجرة أي خروج البدوي من باديته إلى المدن. كما يعطي تفسيرًا آخر من التفسيرات المحتملة لهذا الاسم، وهو أن يكون من معنى الهجران، وكأن سكان هجر هجروا ديارهم واستقلوا عنها. كما يمكن أن يكون مصطلح هجر قد أطلق عليها نسبة إلى عادة كانت لدى العرب الرحل، وهي ربط البعير بحبل في ذراعه إلى حقوه وتقصيره حتى يعجز عن العدو، فقيل هجرت البعير بالمعنى المذكور سلفًا، فشبه الداخل إلى هذا الموضع بالبعير الذي فعل به ذلك حتى غلب الاسم على هذا المكان.

ومن ضمن الفرضيات الأخرى للاشتقاقات اللغوية لاسم هجر أن يكون مشتقًا من معنى التهجير، وهو التبكير إلى الحاجة. كما يمكن أن يكون من الهاجرة، وهي شدة الحر وسط النهار، فسميت المدينة لشدة حرارتها بهجر. أما بلغة حمير وبلغة العرب العاربة، فهجر تعني القرية.

وبالمثل، حظي اسم **صحار** أيضًا بمجموعة من الفرضيات حول أصل اشتقاقاته اللغوية، فبعد أن ضبط ياقوت الحموي هذا الاسم بضم الصاد وفتح الحاء، يذكر أن اشتقاقه جاء من معنى الصحرة، وهي جوبة تنجاب وسط الحرة، وجمعها صحر، فأشبعت الفتحة فصارت ألفا. كما يمكن أن يكون المعنى آت من الصحرة، وهو لون الأصحر، وهو كالشقرة، أو نسبة إلى الصحراء. وثمة افتراض آخر لاشتقاق هذا الاسم، وهو أن صحار سميت بهذا الاسم نسبة إلى صحار بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.[٩]

وبخصوص مدينة **قلهات** – إحدى مدن شرق الجزيرة العربية – فقد ضبطها الجغرافي الآنف الذكر بفتح القاف وسكون اللام، وفسّر اشتقاقها اللغوي من البئر الذي يكون في الجسد أو الوسخ.[١٠] أما مدينة **البحرين**، فالبكري[١١] يذكر أنها سُميت كذلك لوجودها بين البحر الجنوبي أو البحر الأعظم كما يسميه والبحر الشمالي.

ومهما كان الأمر؛ فإن المصادر الجغرافية لم تكتف بضبط أسماء مدن شرق جزيرة العرب وفك اشتقاقاتها اللغوية فحسب، بل سعت إلى تحديد مجالاتها الجغرافية، وتبيان مواقعها على خطوط الطول والعرض؛ لكن نصوصها تطرح إشكالية عدم الدقة في تحديد الانتماء المجالي. فبعض النصوص تقر بانتماء مدينة هجر إلى المجال الجغرافي الواسع للبحرين، فتصبح هذه الأخيرة ناحية كبيرة تضم عدة مدن من بينها مدينة هجر ذاتها، في حين تصبح هذه الأخيرة بواقع هذا التحديد جزءًا من مجال البحرين، وهذا ما يؤكده الحميري[١٢] الذي نعت هجر بأنها (مدينة في البحرين)، بل إن ياقوت الحموي[١٣] سماها (هجر البحرين)، تأكيدًا على تبعيتها كمدينة لمجال جغرافي أوسع، وهو البحرين، وتمييزًا لها في الوقت نفسه عن هجر نجران وهجر جازان وهجر حضنة. في حين قلّص ابن خرداذبة[١٤] من حجم قيمتها العمرانية حين اعتبرها مجرد قرية من قرى البحرين.

بيد أن بعض المصادر الجغرافية عندما تتناول مدينة هجر ضمن نواحي ومدن الجزيرة العربية بصفة عامة، فإنها تشير إليها كمدينة مستقلة لا تنتمي لمجال البحرين[١٥]، فياقوت الحموي[١٦] يناقض ما سبق أن أكده في موضع آخر حول تبعية هجر للبحرين، مشيرًا هذه المرة إلى ما يفيد استقلاليتها كحاضرة كبرى، وأن قصبتها الصفا. كما أن المقدسي[١٧] الذي عاش في القرن (٤ هـ/ ١٠م)، وهو عصر ازدهار هذه المدينة، يشير إليها كحاضرة كبرى قصبتها

الأحساء، ويعدد أسماء المدن التي تندرج في مجالها كسابون والزرقاء وأوال والعقير. ومن جهته، يوردها البكري[١٨] كمجال عمراني مستقل عن البحرين ضمن المدن المشهورة من مدن الإقليم الثاني من أقاليم المعمور وهي اليمامة والبحرين وهجر وغيرها من المدن الأخرى.

والراجح أن هذا الاختلاف بين الجغرافيين، يعود إلى اختلاف زمنية الوصف، فهجر كانت تنعت بالحاضرة الكبرى المستقلة إبان فترات ازدهارها، في حين كانت توصف في مراحل الضعف ضمن المجال الجغرافي للبحرين كما حدث في القرن السابع الهجري. ويبلغ الغموض والخلط في تحديد المجالات الجغرافية لمدن شرق الجزيرة العربية ذروته عند المقدسي[١٩] حين خلط بين الأحساء والبحرين قائلاً: (الأحساء قصبة هجر وتسمى البحرين).

وبالإيقاع نفسه يذكر ياقوت الحموي[٢٠] في صيغة المبنى للمجهول ودون تحديد مصادره أنه (قيل: ناحية البحرين كلها هجر)، مؤكدًا أن ذلك هو الصواب. ويكرّس في موضع آخر هذا الخلط والغموض حين يصف البحرين بأنها (اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، قيل هي – أي البحرين – قصبة هجر، وقيل هجر قصبة البحرين، وقد عدّها قوم من اليمن، وجعلها آخرون قصبة برأسها)[٢١]، وهو نص بعكس مدى تضارب الأقوال وعدم الحسم فيها، ولا يمكن للباحث على ضوء ما جاء فيه تحديد ما إذا كانت هجر قصبة البحرين أم العكس.

الخلط نفسه والتناقض وقع في شراكهما الجغرافي الإدريسي[٢٢] الذي جعل البحرين ناحية كبيرة تشمل مجموعة مدن منها هجر وحمص والقطيف والأحساء وبيسة والزارة، بينما ناقض هذا الوصف في موضع آخر حين جعل من البحرين مجرد مدينة في جزيرة أوال[٢٣]، فهل كان المجال الجغرافي للبحرين قد انكمش وتقلص – في الحالة الأخيرة التي توافق القرن (٦ هـ/ ١٢م) - إلى درجة جعلت هؤلاء الجغرافيين يجعلون الفرع هو الأصل ؟ لا شيء يؤكد ذلك، فابن خرداذبة الذي كتب مصنفه في أواخر القرن الثالث الهجري، يشير إلى تبعية هجر للبحرين، في وقت كانت هذه الأخيرة تشهد إشعاعًا سياسيًا في زمن القرامطة. كما أن الإدريسي[٢٤] نفسه يصف البحرين بالمدينة العامرة. لكن يبدو أن ما عرفته البحرين من مخاضات سياسية وفترات ازدهار وركود، ما جعل الجغرافيين يقعون في هذه التناقضات تبعًا لتغيرات خريطة الجغرافية السياسية التي شهدتها مدن شرق الجزيرة العربية في مختلف المراحل التاريخية.

ومن جهة أخرى؛ تشير بعض نصوص الأدب الجغرافي أيضًا إلى مدينة الأحساء كمجال يندرج في المجال العمراني لمدينة هجر، فهي حسب الإدريسي[٢٥]، (قصبة هجر وقاعدتها)، ويوطن الحميري[٢٦] موقعها على البحر الفارسي (الخليج العربي)، ويذكر أنها تقابل جزيرة أوال، لكنه ينعتها بالمدينة الصغيرة.

من جهته، سعى ياقوت الحموي[٢٧] إلى تحديد موقع مدينة هجر بدقة أكثر، فجعلها ضمن الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة التي يقسم إليها المعمور، وذكر أن طولها من ناحية جهة الغرب ثلاث وسبعون درجة، وعرضها أربع وعشرون درجة وخمس وعشرون دقيقة. لكنه يبدو غير متأكد من معلوماته، إذ يورد معطى آخر من مصدر ثان يشير فيه إلى أن عرضها أربع وثلاثون درجة، وأنها توجد ضمن مدن الإقليم الثالث وليس الثاني كما سبق أن ذكر، دون أن يفاضل بين الفكرتين.

وتتغير أرقام الطول والعرض التي تحدد موقع مدينة هجر عند الجغرافي الأندلسي ابن سعيد[٢٨]، فبعد أن حدد موقعها على ساحل البحر الفارسي، وأوضح أنها تقع في جون أكبر من جون مدينة مسقط، أشار إلى أن طولها (٧٨) درجة و(٤٠) دقيقة، وأن عرضها (٢٢) درجة و(٣٠) دقيقة. أما القزويني[٢٩] فيكتفي بتوطين حدودها الشرقية ببلاد عمان، بينما يحدد الحميري[٣٠] المسافة الفاصلة بينها وبين صحراء الدهناء بأربعة أميال.

أما مدينة القطيف فتضاربت آراء الجغرافيين حول مجال انتمائها الجغرافي، فبينما جعلها الحميري[٣١] ضمن أعمال اليمن، حدد البكري[٣٢] موقعها ضمن مجال البحرين. في حين وطنها أبو الفدا [٣٣] على ساحل البحر الفارسي، مشيرًا إلى أنها جزء من ناحية الأحساء. من جهته، يوطن ابن سعيد [٣٤] مدينة صحار في (٨١) درجة من حيث خطوط الطول، و(١٩) درجة، و(٥٦) دقيقة من حيث خطوط العرض، بينما يوطن مدينة قلهات في آخر عرض من عروض الإقليم الأول.

ويأتي تحديد موقع البحرين في المصادر الجغرافية مشوبا بعدم الدقة والخلط في المفاهيم، فهي توصف أحيانًا بالمدينة، بينما تنعت في مصادر أخرى بالناحية الكبيرة التي تضم مجموعة مدن. فابن حوقل[٣٥] يصنفها كمجال جغرافي واسع يضم مدن هجر والأحساء والقطيف والعقير وبيشة والخرج وأوال، ويضيف إليها ابن خرداذبة[٣٦] الآرة والفروق وبينونة. بيد أن رسم حدودها يبدو أكثر دقة عند الحميري[٣٧] الذي يجعل ساحل البحر الفارسي يحدها شرقًا، والبصرة شمالاً، وعمان جنوبًا، بينما تحاذي حدودها الداخلية غربا منطقة اليمامة.

يتضح مما سلف؛ أن النصوص التي يوفرها الأدب الجغرافي حول مدن شرق الجزيرة العربية هامة، ولكنها تقع في معضلة الخلط والغموض وعدم الدقة أحيانًا، فما هو حظ المجال العمراني لهذه المدن في الأدب الجغرافي والرحلات؟

٢/١- المجال العمراني لمدن شرق الجزيرة العربية:

رغم شح النصوص الخاصة بالمجال العمراني لمدن شرق الجزيرة العربية في أدب الجغرافيا والرحلات، فإن ما هو متوفر منها يسمح بإلقاء بعض الأضواء الهامة على هذا الجانب. فخلال حديثه عن مدينة الأحساء، يذكر ياقوت الحموي[٣٨] أن أول مَنْ عمّرها وحصّنها وجعلها قصبة لهجر هو سليمان بن أبي سعيد الجنابي

القرمطي، وأنها استمرت في ازدهارها العمراني حتى العصر الذي عاش فيه هذا الجغرافي. ويحيل هذا النص إلى افتراض أن الأحساء لم تعرف نموًا عمرانيًا حتى القرن (٤هـ/١٠م) حين ظهر القرامطة. ويبدو أن مدينة هجر كانت صاحبة الريادة في الميدان المعماري قبل هذه الحقبة، وهي فرضية ندلّل على صحتها بنص ورد عند ابن سعيد[٣٩] يؤكد فيه أن هجر (خربها القرامطة وعمّروا الأحساء)، مما يكشف دون شك عن حركة عمرانية متناقضة، فمقابل أفول عمران مدينة هجر، وقعت صحوة عمرانية في مدينة الأحساء، وهي صحوة يشهد بها ناصر خسرو[٤٠] الذي وقف عليها بالعيان حين زارها سنة (٤٩٣هـ/١٠٥١م)، فوصف أسوارها وتحصيناتها، وما عرفه مشهدها العمراني من تألق كبير.

أما مدينة القطيف فيجمع الجغرافيون على أنها كانت مركزًا عمرانيًا هامًا، وأنها كانت محاطة بسور وخندق وأربعة أبواب[٤١]. في حين يفيدنا نص جغرافي إضافي بإشكالية بيئية كانت تعيق النمو العمراني في مدينة البحرين، ويتعلق الأمر بما يمكن أن نسميه بمشكل التصحّر، وهو زحف الرمال على منازل السكان الذين اضطروا تحت إكراهات هذه الآفة الطبيعية إلى ترك منازلهم والانتقال إلى جهة أخرى.[٤٢] لكن لا يبدو أن ذلك لم يؤثر بشكل كبير على تقهقر عمران مدينة البحرين في القرن (٦هـ/ ١٢م) بدليل وصفها من قبل الإدريسي بأنها (مدينة عامرة). ويحتمل أن آثر مشكل التصحر أو زحف الرمال على مدينة البحرين لم يظهر إلا في القرون اللاحقة، وهو افتراض تعضده شهادة الحميري[٤٣] الذي عاش في القرن (٨ هـ/ ١٤م)، ومفادها وجود بعض الآثار والبنايات القديمة في مناطق واقعة بضواحي البحرين، ليس من المستبعد أن تكون هي المنازل نفسها التي تركها أهلها نتيجة زحف الرمال عليها، مما يعزز فرضية وجود مركز عمراني قريب من مدينة البحرين.

وبخصوص المشهد العمراني في مدينة قلهات، يقدم ابن بطوطة[٤٤] شهادة حية حول معمارها الديني إذ يصف مسجدها بأنه (أحسن المساجد، حيطانه بالقاشاني وهو شبه الزليج)، ويصفه بأن بنيانه مرتفع، يشاهد منه البحر والمرسى، مشيرًا إلى أنه تم تشييده من طرف امرأة صالحة تدعى الحرة مريم. ولا مشاحة في أن المشهد العمراني في الأدب الجغرافي يأخذ حجمًا أكبر بالنسبة لمدينة صحار، ويمكن من خلاله رسم الخطوط العريضة التالية:

١- تميزت الدور والمنازل في صحار من الناحية الجمالية بالأناقة والطراز المعماري الرفيع، وعلو المباني، وهو ما نلمسه في قول المقدسي[٤٥] بأن دورهم (شاهقة نفيسة).

٢- كانت مواد البناء المستعملة في المنازل تتشكل من الآجر والساج[٤٦] والأحجار والطوب والخشب.[٤٧]

٣- جودة المعمار الديني المتمثل في الجامع الذي تم تشييده على ساحل البحر، وعرف بمنارته الطويلة الحسنة البناء، إلى جانب المسجد الذي يقال أن ناقة الرسول (ﷺ) بركت فيه. وقد تميز بناؤه بالجودة العالية، بل برزت فيه لمسات إبداعية تجلت في صنع لولب بمحراب الجامع يدور دورانًا، فيحدث ألوانًا مختلفة تتناوب بين الأصفر والأخضر والأحمر. ويبدو أن مثل هذا الإبداع لم يكن مألوفا في مجال المعمار الديني إلى درجة أنه أثار انتباه الجغرافيين فسجلوه في مصنفاتهم.[٤٨]

ويضيف ياقوت الحموي[٤٩] معطى معماريًا آخر حول الجامع السالف الذكر، حين يصفه بأنه عبارة عن مصلى يلفه النخيل، مما يعكس روعة وجمالية الموقع والمساحات الخضراء المحيطة به. وإذا كان من الصعب رسم الملامح العامة للهندسة المعمارية لمدينة صحار في غياب حفريات أركيولوجية، فيبدو - كما يميل إلى ذلك أحد الباحثين[٥٠]- أن قسمًا كبيرًا من المباني ذات الواجهة المتجهة نحو مكة تقع تحت القلعة الحديثة وتمتد إلى ما ورائها، وربما كانت هذه المباني هي بقايا الجامع السالف الذكر.

٤- من الراجح أيضًا أن يكون الطراز المعماري الرفيع المستوى الذي تميزت به صحار، راجع إلى سببين: (أ) أن أغلب سكان مدينة صحار كانوا من طبقة الأثرياء، إذ هم (في سعة من كل شيء).[٥١] (ب) غلبة الطابع التجاري و"الميتروبولي" على المدينة نتيجة ارتيادها من طرف أجناس مختلفة، وحضارات متنوعة، مما جعل الطراز المعماري للمدينة في غاية الجودة والإتقان.

٥- الكثافة العمرانية: وهو ما يؤكده نص جغرافي مفاده أن صحار (بلد عامر آهل).[٥٢] بل إن ابن المجاور يزودنا برقم يحمل دلالة على التوسع العمراني الذي عرفته هذه المدينة، إذ يذكر أنه كان يوجد بصحار عشرة ألف منزل. بيد أن توطين زمنية هذا الرقم يظل محاطًا بسياج من الشك لأن الجغرافي المذكور يعوّم الفضاء الزمني الخاص بهذا الرقم ولا يحدده، بل يكتفي بالإحالة على الماضي دون تحديد زمني دقيق.

لكن يبدو أنه في عصر أبي الفدا (القرن ٨هـ) كان الخراب قد بدأ يدب في النسيج العمراني لمدينة صحار بدليل قول هذا الأخير (وصحار بليدة خراب)[٥٣]، لكنه أشاد بتوسعها العمراني حيث نقل عن جغرافيين آخرين مادته حول ماضيها العمراني، مستخلصا أنها كانت أكبر مدينة على بحر فارس (الخليج العربي).[٥٤] ونرجح أيضًا أن الكثافة السكانية طالت كذلك مدينة الأحساء بشهادة الجغرافي المقدسي[٥٥] الذي وصفها بأنها (عامرة آهلة). والقول نفسه ينسحب أيضًا على مدينة قلهات التي ظلت (عامرة آهلة)[٥٦]؛ لكن يرجح أن توسعها العمراني المنوه به لم يبدأ إلا في القرن (٦هـ/ ١٢م)، بدليل قول أحد الجغرافيين (ولا أظنها تمصرت إلا بعد المائة الخامسة).[٥٧]

أما المجال العمراني لمدينة هجر، فيحتمل أنه تعرض للتدهور في أواخر القرن (٣ هـ/ ٩م)، وهو ما يستشف من المؤشر الذي تقدمه النصوص الجغرافية حول عدد سكانها. فالراجح أن هذا العدد قد انخفض بشكل سريع بعد حصار أبي سعيد الجنابي القرطبي لها ودخوله إليها حوالي سنة ٣٠٠هـ، إذ أحدث فيها مجزرة

رهيبة راح ضحيتها معظم السكان فلم يبق من أهل هجر (إلا عشرون رجلاً)،[٥٨] وهو نص يشي بالنكسة الكبيرة التي تعرض لها مجالها العمراني.

ثانيًا: الثروات الاقتصادية لمدن شرق الجزيرة العربية

١/٢- المشهد الزراعي:

رغم وجود معظم مدن شرق الجزيرة العربية في أراض صحراوية قاحلة، حتى أن المقدسي وصف الأحساء بأنها (معدن الحر والقحط)،[٥٩] فإنه لم تنعدم إمكانيات الريّ في بعضها؛ فالبحرين رغم أنها (شديدة الحر)،[٦٠] فإنها على خلاف مدن شرق الجزيرة العربية الأخرى كانت (سهلة كثيرة الأنهار والعيون، عذبة الماء).[٦١] بل كانت أرضها تختزن كميات كبيرة من المياه يمكن استنباطها على عمق قامة أو قامتين فقط،[٦٢] أي حوالي ثلاثة إلى أربعة أمتار. وقد أشاد الإدريسي[٦٣] بمياه العيون المتفجرة في البحرين، وذكر أسماء بعضها كعين بوزيدان وعين مربلغة وعين غذار التي يصفها بأنها مستديرة الفم في عرض ستين شبرًا وعمقها يصل إلى خمسين قامة، وتطحن الأرحاء من مياهها المتدفقة.

وبالمثل، كان موقع مدينة صحار يتميز بوجود وادي الجزي الذي يمتد كيلومترين في البحر. وعلى شمال المدينة ينبعث أطول مجرى مائي في المنطقة الوسطى من الباطنة، وتتحول مياهه إلى قنوات جوفية.[٦٤] يضاف إلى هذه الموارد المائية وجود مجموعة من الآبار والقنوات التي توفر ماء الشرب ومياه السقي، فلسكان هذه المدينة (آبار عذبة وقناة حلوة).[٦٥] ويبدو أن الآبار شكلت موردًا أساسيًا للمدينة حتى أن الحميري [٦٦] نصّ على أن (مياهها من الآبار).

مع وجود هذه الاستثناءات، يمكن القول – استنادًا إلى الأدب الجغرافي – أن مدن شرق الجزيرة العربية عمومًا عانت من قلة المياه، لذلك حاولت التكيف مع بيئتها الجافة بغرس المزروعات التي تتلاءم مع المناخ السائد فيها، ويأتي في مقدمتها التمر الذي كان ينتج بكميات كبيرة، خاصة في مدينة هجر، حتى أصبح يضرب بها المثل في كثرته[٦٧] فقيل (كمهدي التمر إلى هجر) [٦٨]، أو (كمستبضع التمر في هجر)،[٦٩] وهي أمثال يستشف منها وجود كميات فائضة من الإنتاج، الأمر الذي تؤكده شهادات بعض الرحالة الذين زاروا هجر، فذكروا أن ألف طن من التمر كانت تباع بدينار واحد، بل كان التمر يعطى أحيانًا علفًا للحيوانات بسبب فائض الإنتاج.[٧٠] وإلى جانب ذلك، كانت هجر تنتج حسب ما يذكره القزويني[٧١] الرمان والتين والأترج والقطن.

وبالمثل، كان للبحرين نصيب هام من إنتاج التمور، وقد يكون لتمرها ميزة خاصة (فإذا انتبذ وشرب اصفرت الثياب من عرقه).[٧٢] لكن يبدو أن كثرة البساتين التي تحيط بالمدينة جعلتها منتجة أيضا للفواكه والزرع.[٧٣] لذلك لا عجب أن يندهش ابن بطوطة[٧٤] إبان زيارته للبحرين ببساتينها وأشجارها، وبحدائق النخل والرمان والأترج والليمون المنتشر فيها. كما أن إحدى جزرها وهي جزيرة خارك عرفت كذلك بإنتاج جزر غليظ لا يمكن قطعه إلا بالقادوم لشدة غلظه.[٧٥] وبدورها كانت البحرين تنتج الحناء والقطن على ضفاف الأنهار.[٧٦] وعلى غرار هجر والبحرين، كانت الأحساء منتجة للتمور كذلك بفضل كثرة أشجار النخيل،[٧٧] حتى ليقال أن النخيل كان يتخذ شكل سياج دائري يحيط بها.[٧٨] كما كانت القطيف بدورها مركزا لإنتاج التمور.[٧٩]

وتفصح الآثار المكتشفة في مدينة صحار عن ازدهار النظام الزراعي فيها، ولا غرو فإن سهلها الساحلي كان يتكون من الحصى الطينية والأحجار الجيرية، وفي غرب البحر يقل سمك هذه الطبقة نسبيا، ويصبح سطح الماء موازيا لسطح الأرض.[٨٠] لذلك كانت هذه المدينة بسبب مرور وادي جزي في أراضيها مركزًا طبيعيًا للتطور الزراعي، فعرفت بإنتاج التمور بفضل وفرة زراعة النخيل، ولا غرو فإن مصلاها كم يؤكد ذلك المقدسي[٨١] محاطًا بأشجار النخيل. كما كانت تنتج كميات وافرة من الفواكه الاستوائية، فضلاً عن الرمان والسفرجل.[٨٢] أما جزيرة أوال فقد انتشرت فيها زراعات الموز والجوز والأترج وأصناف الزروع والتمور والعنب والليمون والرمان.[٨٣] ومن الأكيد أن نشاط الرعي وتربية الماشية كان منتشرًا في البحرين. وقد يكون الإنتاج زائدًا عن الحاجة حتى أنه كان يصدر، وهو ما ينهض عليه دليلاً قول البكري[٨٤] أن (الشياه كان يحملها أهل البصرة من البحرين).

٢/٢- الحرف والصناعات:

لا نجد مادة هامة حول المشهد الصناعي في مدن شرق الجزيرة العربية، باستثناء إيماءات قليلة حول وجود بعض المعادن وقيام بعض الصناعات النسيجية. فالجغرافي ابن رسته[٨٥] يتحدث في "أعلاقه النفيسة" عن معدن اللؤلؤ المستخرج من البحرين، ويسميه باللؤلؤ القطري، بينما يوطن المقدسي[٨٦] هذا المعدن في (حدود هجر يغاص عليه في البحر بالقرب من أوال). أما الحميري[٨٧] فيجعل جزيرة أوال القريبة من البحرين موطن هذا اللؤلؤ، ويورد بيتا لأبي العلاء المعري يعكس كثرة الإنتاج من هذا المعدن حيث يقول:

جهلتن أن اللؤلؤ الذوب عندنا ••• رخيص وأن الجامدات غوالي

وعلى غرار صناعة اللؤلؤ، انتشرت بعض الصناعات النسيجية مثل صناعة الملاحف والفوط والأحذية في البحرين والأحساء. وكانت هذه الفوط عبارة عن ملابس قصيرة مخططة يأتزر بها الخدم والطبقات الفقيرة، وتنسج في أماكن عديدة من بينها الأحساء.[٨٨] كما أن مدينة هجر كانت مشهورة في صناعة الثياب والبرود والأردية حتى أن بعض الثياب الهجرية صدرت في مطلع الدعوة الإسلامية إلى الحجاز.[٨٩] وعرفت هجر أيضًا بصناع القلال التي كانت تصدر إلى المدينة، واشتهرت باسم (القلال الهجرية)، وهي القلال التي شبّه بها رسول الله (ﷺ) نبق الجنة. ويقال إن سعتها كانت تبلغ (٥٠٠) رطل.[٩٠] ولا يخامرنا الشك في أن كثرة المباني في مدينة صحار وغيرها من مدن شرق الجزيرة العربية ساهمت في

رواج صناعة البناء وما يتبعها من صناعة الطوب والآجر التي كانت توضع في أفران خاصة. وقد دلت الأبحاث الأثرية التي أجريت في صحار على بقايا من الطوب، مما يكشف أهمية هذه الصناعة.[٩١]

٣/٢- النشاط التجاري:

أ- الطرق التجارية كما يقدمها الأدب الجغرافي:

تمثل كتب المسالك والممالك مصدرًا هامًا لتحديد الطرق التجارية والمواصلات بين المدن والأقطار. وبخصوص مدن شرق الجزيرة العربية موضوع الدراسة، تقدم هذه الكتب مادة توضيحية هامة عن هذه الطرق التي يمكن حصرها في طرق بحرية وبرية. فبالنسبة للطرق البحرية ثمة طريق كان يربط البحرين بعمان مرورًا بصحار والشقط وهي قرية صغيرة كان يستقي بها أرباب المراكب لوجود آبار بها، ثم مسقط ورأس الجمجمة، وهي آخر البحر الفارسي. وكانت توجد على طول هذا الطريق علامات من خشب منصوبة في البحر تعين أصحاب المراكب على معرفة اتجاه الطريق[٩٢]. وهناك طريق بحري كان يربط جزيرة أوال بالبحرين، وهو طريق قصير، ومن هناك كان المسافرون يواصلون رحلتهم عبر مدن الزارة والعقير والقطيف.[٩٣] وثمة طريق ساحلي أيضًا ينطلق من البصرة إلى عبادان ثم عمان مرورًا بهجر والعقير وصحار ودبا،[٩٤] فضلاً عن طريق آخر يربط البحرين بصحار ويواصل نحو دبا ومسقط.[٩٥]

ب- الطرق البرية:

تشتمل كتب الجغرافيا والرحلات على وصف دقيق لمسار الطرق البرية الرابطة بين مدن شرق الجزيرة العربية وغيرها من المناطق الأخرى، ومنها طريق يربط البحرين باليمامة ومكة، ويمر بالأحساء والقطيف. لكن الرحلة في هذا الطريق لا تتيسر إلا في فصل الشتاء حين تتجمع الأمطار ويستغلها تجار القوافل التجارية للشرب.[٩٦] وهناك طريق بري يربط مدينة هجر بجزيرة أوال، حدد الحميري[٩٧] مسافته في اثني عشر فرسخًا. ويفصل بين القطيف والأحساء طريق تبلغ مسافته مرحلتان،[٩٨] بينما يبلغ الطريق الشمالي الرابط بين البحرين وعمان عشرون مرحلة، ولكنه صعب الاجتياز بسبب النزاع بين القبائل العربية وغاراتهم على القوافل المارة به، مما أفقده كل ضمانة أمنية، حيث كان التجار يخافون على أموالهم.[٩٩]

أما الطريق البري الذي يربط البحرين بعمان مرورًا بعبادان فيقدره ابن حوقل[١٠٠] بـ (١١) مرحلة إلى عبادان وبحوالي شهر إلى عمان. بيد أن هذا الطريق تعطّل في القرن (٥هـ/ ١١م) بسبب الرمال التي غطته، فأصبح الطريق البحري هو البديل عنه.[١٠١] واستمر هذا الطريق معطلاً حتى عصر ابن بطوطة (القرن ٨ هـ/ ١٤م) كما تؤكد ذلك شهادته.[١٠٢]

وبقدر ما تفيد كتب الجغرافيا والرحلات في تحديد المسالك والطرق بين مدن شرق الجزيرة العربية وغيرها من الأماكن والبلدان، بقدر ما تفيد أيضًا في تحديد المسافات الفاصلة بينها، نذكر على سبيل المثال المسافة الفاصلة بين هجر واليمن والتي تصل إلى عشرة أيام، كذا بينها وبين البصرة والتي تصل إلى (١٥) يومًا على الإبل،[١٠٣] ومن البحرين والخشبات سبعون فرسخًا،[١٠٤] وبين أوال وهجر (١٢) فرسخًا في طريق البر وعشرة فراسخ في الطريق البحري،[١٠٥] ومن البحرين نحو عمان مسافة شهر.[١٠٦]

وبفضل تعدد الطرق البحرية والبرية، تحولت بعض مدن شرق الجزيرة العربية إلى موانئ نشيطة أو أسواق داخلية مزدهرة؛ ولا غرو فقد كان لمدينة القطيف (خور من البحر تدخل فيه المراكب الكبار الموسقة سواء أثناء مد البحر أو جزره)،[١٠٧] كما أصبح ميناء صحار أيضًا قبلة المراكب من مختلف الأصقاع، ومنها ركب المسعودي مع جماعة من أهل المراكب السيرافيين).[١٠٨] وبدورها صارت مدينة قلهات مرفئًا كبيرًا للسفن القادمة من الهند،[١٠٩] وعرف أهلها بترحيبهم بأصحاب المراكب، إذ كلما وصل إليهم مركب، (فرحوا به أشد الفرح)،[١١٠] وهو ما يتكامل مع إشادة ماركوبولو[١١١] في رحلته بميناء قلهات، وانبهاره بكثرة المراكب التي كانت تؤمه. كما تحولت مدن أخرى بفضل تعدد طرقها البرية إلى أسواق نشيطة نذكر من بينها مدينة الأحساء التي اشتهر فيها (سوق الأحساء)،[١١٢] فضلاً عن أسواق أخرى كانت تنتشر في ربوعها.[١١٣]

وفي السياق نفسه، يتحدث الجغرافيون والرحالة عن (الأسواق العجيبة) في صحار،[١١٤] و(الأسواق الحسنة) في قلهات،[١١٥] وكلها صيغ تعبيرية تترجم مدى ازدهار التجارة الداخلية في مدن شرق الجزيرة العربية، وهو ما عكسته التجارة "البينية"، أي المبادلات التجارية التي كانت تتم بين مدن شرق الجزيرة العربية كتلك التي أشار إليها القزويني[١١٦] بمناسبة حديثة عن انتقال بني تميم من البحرين إلى هجر لأغراض تجارية بعد انتقام حاكم فارس منهم.

أما على مستوى المبادلات الخارجية، فإن النصوص الجغرافية تكشف عن الإشعاع التجاري الذي عرفته مدن شرق الجزيرة العربية، فأهل مدينتي الأحساء والقطيف كانوا يحملون كميات كبيرة من التمر إلى اليمامة، ويقايضون الأهالي هناك بالحنطة، إذ كان يتم استبدال كل راحلتين من التمر براحلة من الحنطة حسب ما يذكره صاحب تقويم البلدان.[١١٧]

وتوضح نصوص الأدب الجغرافي والرحلات أن المبادلات التجارية اتسعت لتشمل الصين والهند واليمن والعراق وبلاد الزنج، وغيرها من الأصقاع النائية. ولعب ميناء صحار دورًا حيويًا في هذه التجارة الدولية، إذ منه كانت تخرج السفن محملة بالبضائع نحو مختلف العواصم التجارية العالمية.[١١٨] ونشطت فيها الحركة التجارية حتى أصبحت على حد تعبير المقدسي[١١٩] (دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن). وفي الاتجاه نفسه يبرز الادريسي[١٢٠] الطابع "الميتروبولي" لهذه المدينة بقوله: (ويقصدها في كل سنة من تجار البلاد ما لا يحصى عددهم، وإليها يجلب جميع بضائع اليمن، ويتجهز بها أنواع التجارات وأحوال أهلها واسعة، ومتاجرهم مربحة).

ويستشف من خلال أدب الجغرافيا والرحلات أن العلاقات التجارية لهذه المدينة مع الصين كانت من القوة والكثافة ما جعل ميناءها يغص بالمراكب الصينية، لكن خللاً وقع بسبب استيلاء الفرس على جزيرة كيش، إذ كانت تسيّر منها حملات عسكرية لغزو اليمن، مما أضر بالتجار الذين فقدوا الأمن، وهو الشرط الضروري لممارسة التجارة.[١٢١] وقد أشار الرحالة برزك[١٢٢] إلى السفن الصينية التي كانت تؤم موانئ عمان وضمنها ميناء صحار، فكانت تحمل المؤن الرخيصة من التمر والفواكه التي تجد لها سوقًا رائجة في الشرق الأدنى، وتعود محملة بالسلع الصينية المطلوبة في صحار وغيرها من مدن شرق الجزيرة العربية. ولا غرو فقد أكد البحث الأثري هذه المبادلات التجارية، إذ عثر المنقبون الأثريون في صحار على بقايا مدفونة من البورسلين (الخزف الصيني) الذي يرجع للعصور الوسطى،[١٢٣] كما وجدت في المدينة جالية يهودية كبيرة تعمل بالتجارة والقروض المالية وفق الأعراف السائدة في ذلك الزمن.[١٢٤]

أما المبادلات التجارية مع الهند، فقد أكد الرحالة ماركوبولو[١٢٥] أن أهالي مدينة قلهات كانوا يستوردون التوابل من الهند، بينما أشار الرحالة المغربي ابن بطوطة[١٢٦] إلى استيرادهم الأرز من الهند أيضًا فأكد أنهم (أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتي إليهم في البحر الهندي). ومن جهتها، عرفت البحرين مبادلات تجارية نشيطة مع بلاد الفرس، إذ كانت تصدر إليها التمر والدبس،[١٢٧] مقابل استيراد مجموعة من السلع الإيرانية التي لم تفصّل فيها كتب الجغرافيا إذ اكتفى الحميري[١٢٨] بالقول: (وميرة البحرين تجلب إليها من فارس).

ولا يخامرنا الشك – بناءً على رواية الرحالة ابن بطوطة –[١٢٩] أن جالية من التجار البحرينيين كانت موجودة في مدينة قاليقوط الهندية، كان يترأسها تاجر بحريني يسمى إبراهيم شاه بندر، ويلقب بأمير التجار. وقد وصفه ابن بطوطة بأنه (فاضل ذو مكارم يجتمع إليه التجار ويأكلون في سماطه). ولم يقتصر الوجود التجاري البحريني على الشرق الأدنى، بل امتد ليشمل بلاد الزنج كذلك، ولا غرو فقد لاحظ ابن رسته[١٣٠] وجود تجار من البحرين وقد حملوا معهم بيضا يشبه بيض النعام.

أما تجارة اللؤلؤ ومغاص الجوهر، فقد كان لأهل البحرين والقطيف باع طويل فيها، وهو ما تدل عليه شهادة ابن بطوطة التي تميزت بالمشاهدة العيانية، إذ يقول: (ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم، فإذا كان شهر أبريل ومايو تأتي إليه القوارب الكثيرة، فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف).[١٣١] ويستشف من هذا النص أن تجارة مغاص الجوهر كانت تبدأ بعملية البحث عنه في أعماق الخليج العربي في ناحية البحرين، وأن هذه العملية كانت تتم في شهري أبريل ومايو، وأن تجارًا من البحرين والقطيف، بالإضافة إلى التجار الفرس كانوا يشرفون على هذه العملية قبل إنهاء تصنيعها وحملها إلى الأسواق. ويتفق الإدريسي[١٣٢] مع هذه الشهادة، ولكنه يخالف صاحبها في توقيت عملية الغوص للبحث عن هذا الجوهر، إذ يحدده زمنيا بشهري غشت وشتنبر، ومكانيًا في جزيرة أوال. كما أن نصه أكثر وضوحًا إذ يقر بأن التجار كانوا يكترون الغواصين للقيام بالبحث عن مغاص الجوهر، وذلك بأجر يتم الاتفاق عليه، ويتفاوت حسب زمان الغوص وطريقته وحسب درجة أمانة الغواصين.

وعلى كل حال؛ فقد كانت تجارة اللؤلؤ ومغاص الجوهر من أهم أنواع تجارة الكماليات التي عرفتها مدن شرق الجزيرة العربية، خاصةً البحرين والقطيف كما تؤكد ذلك مصادرنا الجغرافية.

ثالثا: جوانب حضارية متنوعة

إلى جانب ما تتيحه كتب الجغرافيا والرحلات من نصوص حول موقع مدن شرق الجزيرة العربية واشتقاقات أسمائها ومعمارها وثرواتها الاقتصادية ومبادلاتها التجارية، فإنها تزود الباحث بنصوص متفرقة حول المشهد الحضاري بمدن شرق الجزيرة العربية. ففي ثنايا هذه المصادر، تنبث إشارات مهمة حول مسألة الضرائب وديوان جبايتها ببعض مدن شرق الجزيرة العربية، وأسماء الأشخاص المكلفين بالجباية وغيرها من المعلومات الهامة التي تساهم في إضاءة هذا الجانب الحضاري.

١/٣- جباية الضرائب:

يمدنا ياقوت الحموي، بنص حول كتاب الصلح الذي تم بين الفاتحين المسلمين للبحرين ومن كان بها من المجوس واليهود والنصارى، ومنه نستشف أن المسلمين فرضوا جزية الرؤوس على هؤلاء، حيث كان يؤخذ دينار واحد عن كل من بلغ الحلم منهم. ويذكر لنا رواية حول العلاء بن الحضرمي الذي كان يأخذ خراج البحرين من المشركين والعشر من المسلمين حتى اجتمع له من مال البحرين ثمانين ألف دينار، بعثها إلى رسول الله (ﷺ)، وهو مبلغ هائل (ما أتاه أكثر منه قبله ولا بعده) [١٣٣]؛ وحسبنا أن أحد جباة الخراج بالبحرين في عهد عمر بن الخطاب لم يجمع سوى (١٢) ألف دينار.[١٣٤] كما يذكر الجغرافي نفسه أيضًا أن رسول الله (ﷺ) أخذ الجزية من مجوس هجر دون أن يحدد قيمتها.[١٣٥] وفي موضع آخر يذكر أن مجوس القطيف انضموا إلى المكعبر الفارسي أثناء أحداث الردة وامتنعوا عن أداء الجزية.[١٣٦]

ومن بين الشخصيات الإسلامية التي تولت جباية الضرائب في البحرين خلال عهد الخليفة عمر بن الخطاب، يذكر صاحب معجم البلدان قدامة بن مضعون الجمحي، الذي عزل وولي مكانه أبو هريرة الذي عزل أيضًا لأن عمر بن الخطاب شك في مبلغ (١٢) ألف دينار التي اجتمعت له من قيمة الجباية.[١٣٧] أما في عصر القرامطة فينفرد ابن حوقل[١٣٨] برواية مفادها أن حاكم البحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام وولده سليمان كانا يفرضان ضريبة كبيرة على كل المراكب التي تمر بهجر والأحساء والقطيف والعقير وجزيرة أوال. ومن الراجح أن هذه الضرائب جلبت إلى هذه المدن أموالا طائلة.

ويستشف من النص نفسه أن البحرين كانت مقطعة بكل ما فيها من ضياع ومزارع لبعض أتباع الحاكم المذكور. وكان على هؤلاء أن يؤدوا سنويًا مبلغ ثلاثين ألف دينار كضريبة مقابل الإقطاع الذي حظوا به.[١٣٩] أما المقدسي،[١٤٠] فيشير إلى مثل هذا الديوان الخاص بجمع الضرائب بمصطلح (خزانة المهدي) فضلاً عن (خزائن أخرى لهم أيضًا فبعض الأموال بتلك وبقيته في خزائنهم)، والضمير هنا يعود على القرامطة.

٢/٣- الأوبئة والأطعمة:

تجمع نصوص الأدب الجغرافي والرحالة على مرض كان يعم البحرين ويميزها عن غيرها من مدن شرق الجزيرة العربية، وهو مرض الطحال، فكل (مَنْ سكن البحرين عظم طحاله).[١٤١] ونظرًا لشيوع هذا المرض بالبحرين فقد شاع في الأمثال التي نقلتها كتب الجغرافيا حتى قيل (لا صيف كصيف عمان، ولا صواعق كصواعق تهامة، ولا جرب كجرب اليمن، ولا طواعين كطواعين الشام، ولا طحال كطحال البحرين):[١٤٢] بل إن ذاكرة الشعراء اختزنت بدوها شبح هذا الوباء حيث قال أحد الشعراء فيما نقله أحد الجغرافيين:[١٤٣]

ومَنْ يسكن البحرين يعظم طحاله••• وغبط بما في بطنه وهو جائع

وثمة وباء آخر وقع في مدينة هجر سنة ٢٨٧هـ، ولكنه كان وباءً طارئًا، ولم يكن من الأمراض الشائعة أو المزمنة مثل وباء الطحال. وقد ورد خبر هذا المرض عند البكري والحميري اللذان أشارا إلى أنه عند حصار أبي سعيد القرمطي مدينة هجر ودخوله إياها بعد حصار دام أربع سنين، وجد الناس داخل المدينة قد اعتلوا وهزلت أجسامهم بعد أن كان الوباء قد عمّهم، مخلفًا هلاك طاقة بشرية كبيرة.[١٤٤] أما بخصوص الأطعمة فلم تقدم لنا النصوص الجغرافية التي تم الاطلاع عليها سوى نص واحد بهم مدينة قلهات التي زارها الرحالة ابن بطوطة في القرن (٨هـ/ ١٤م)، فذكر لنا أن أهل هذه المدينة اعتادوا على أكل نوع من السمك في غاية الجودة، ويقدم لنا طريقة تحضيره بالقول أنهم كانوا يشوونه على ورق الشجر، ويجعلونه على الأرز ويأكلونه.[١٤٥]

٣/٣- اللغة والمتنزهات:

تزودنا كتب الجغرافيا والرحلات أيضا بنصوص تهم لغة بعض مدن شرق الجزيرة العربية، خاصةً صحار وقلهات. فعن صحار يشير المقدسي[١٤٦] إلى أن كلام أهلها كان باللغة الفارسية، وذلك خلافًا للمدن الأخرى التي كانت تتحدث بالعربية. أما كلام أهل قلهات، فلم يكن يتميز بالفصاحة حسب ابن بطوطة الذي التقى بهم وتحدث معهم (فكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب).[١٤٧] وكانت لديهم عادة إضافة نطق "لا" في كل كلمة إذ كانوا يقولون مثلاً: تأكل لا، تمشي لا، تفعل كذا لا.[١٤٨] ويطالعنا الحميري[١٤٩] بمعطى حضاري آخر حول المنتزهات التي كانت تشتمل عليها ضواح البحرين وعلاقتها بالمناخ الحار السائد إذ يقول عن أهل البحرين (وبساتينهم على نحو ميل منها – أي مدينة البحرين – ولا يأتونها إلا غدوا أو رواحا لإفراط حرّ الرمضاء).

٤/٣- مذاهب وأعلام:

تتضمن كتب الجغرافيا والرحلات نصوصا قليلة، ولكنها مهمة حول الخريطة المذهبية لبعض مدن شرق الجزيرة العربية، فمن خلال مشاهدات ابن بطوطة نقف على حضور المذهب الشيعي في مدينة القطيف، إذ لاحظ الرحالة المغربي أن أهل القطيف كانوا لا يخفون مذهبهم الشيعي الرافضي. وقد سمع بنفسه إبان زيارته لهذه المدينة المؤذن يذكر بعد الشهادتين أن عليا ولي الله ويزيد بعد التكبير الأخير: (محمد وعلي خير البشر، مَنْ خالفهما فقد كفر).[١٥٠] ويبدو أن هذا الحضور الشيعي الذي لاحظه ابن بطوطة في مدينة القطيف ترجع جذوره إلى عهد الهيمنة القرمطية على المدينة منذ القرن (٤ هـ/ ١٠م).

أما في مدينة الأحساء، فيتفرد ابن حوقل[١٥١] بذكر نص حول وجود مذهب العقدانية فيها. ويذكر أن رجال هذا المذهب كانوا من ذوي الفهم والعقل والحلم، إلا أن أتباعهم من بني الغمر كانوا من العامة الجفاة. بينما كان المذهب الإباضي منتشرًا في مدينة قلهات، ولم يكن أحد من سكان هذه المدينة يخفي هذا المذهب أو يتستر عليه.[١٥٢] وعلى غرار الإضاءات التي توفرها كتب الجغرافيا والرحلات حول الخريطة المذهبية ببعض مدن شرق الجزيرة العربية، فإنها تزودنا أيضًا بأسماء أعلام بعض هذه المدن، إذ يذكر ياقوت الحموي مجموعة من أعلام مدينة صحار من بينهم أبو علي محمد بن روزان الصحاري الشاعر.[١٥٣] كما يذكر أيضًا شخصيات من علماء البحرين من بينهم محمد بن معمر البحراني، والعباس بن يزيد بن أبي حبيب البحراني، وزكريا بن عطية البحراني.[١٥٤]

ويورد ابن حوقل[١٥٥] عادة اجتماعية لدى أهل الأحساء سردها عند ذكر ولد أبي طاهر إذ يقول أنه كان من عادة مشايخهم وأولادهم أن يركبوا فرادى، فيجتمعون بالأحساء في مكان يعرف بالجرعاء، فيلعب أحداثهم بالرماح على خيولهم، وينصرفون بغاية التواضع وقد لبسوا البياض لا غير.

خاتمة

قصارى القول؛ أن المشهد الحضاري في مدن شرق الجزيرة العربية لا يكتمل وتتضح صورته إلا إذا استند الباحث على الأدب الجغرافي والرحلات. وقد أبانت هذه الدراسة التي اعتمدت على هذا الصنف من المصادر عن مجموعة من اللوحات الحضارية، إذ كشفت عن مواقع مدن شرق الجزيرة العربية في خطوط الطول والعرض، وتتبعت اشتقاقات أسمائها من الناحية اللغوية، كما ألقت بعض الأضواء على تطور معمارها وخصائصه، وأعطت مجموعة من المعلومات حول ثرواتها الاقتصادية ومبادلاتها التجارية التي تعز في المدونات التاريخية، فضلاً عن معطيات متفرقة حول المشهد الحضاري في مدن شرق الجزيرة العربية.

الهَوامِشُ:

(١) **معجم البلدان**، دار الكتاب العربي، بيروت (دون تاريخ)، ج١، ص١١١.
(٢) **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت، باريس ١٨٤٠ م، ص٩٩.
(٣) **رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار**، تحقيق طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت (دون تاريخ)، ص٢٩١.
(٤) **معجم البلدان**، ج٤، ص٣٧٨.
(٥) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.
(٦) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، دار القلم للطباعة، بيروت ١٩٧٥، ص٥٩٢.
(٧) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.
(٨) يشرح ياقوت الحموي "الهذيان" بقوله: (ويجوز أن يكون شيء مهجر إذا أفرط في الحسن والتمام، وسمي كذلك لأن الناعت له يخرج في إفراطه إلى الهجر (بضم الهاء) وهو الهذيان، انظر: المصدر نفسه والصفحة.
(٩) المصدر نفسه والصفحة.
(١٠) **ياقوت الحموي**، م. س، ج٤، ص٣٩٣.
(١١) **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فون ليوفن، وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس ١٩٩٢، ج١، ص١٩٠.
(١٢) **الروض المعطار**، ص٥٩٢.
(١٣) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.
(١٤) **المسالك والممالك**، منشورات دار صادر، بيروت، طبعة ليدن – بريل ١٨٨٩م، ص١٥٢.
(15) Farouk Omar Fawzi; Studies in The History of Oman, Publications of AL al-Bayt University, 2000, P.23.
(١٦) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.
(١٧) **أحسن التقاسيم**، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩١، ط٣، ص٧١.
(١٨) **المسالك والممالك**، ج١، ص١٨٣.
(١٩) **أحسن التقاسيم**، ص٩٣.
(٢٠) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.
(٢١) نفسه، ج١، ص٣٤٧.
(٢٢) **نزهة المشتاق**، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٤، ج١، ص٣٨٦.
(٢٣) نفسه، ص٣٨٧.
(٢٤) المصدر نفسه والصفحة.
(٢٥) نفسه، ص٣٨٧.
(٢٦) **الروض المعطار**، ص٢٤٤.
(٢٧) **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٩٣.
(٢٨) **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٠، ط١، ص١١٨.
(٢٩) **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، (دون تاريخ)، ص٥٦.
(٣٠) **الروض المعطار**، ص٢٤٤.
(٣١) نفسه، ص٤٦٥.
(٣٢) **المسالك والممالك**، ح١، ص٣٧٢.
(٣٣) **تقويم البلدان**، ص٩٩.
(٣٤) **كتبا الجغرافيا**، ص١١٨.
(٣٥) **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢، ص٣٣.
(٣٦) **المسالك والممالك**، ج١، ص٢٠٨.
(٣٧) **الروض المعطار**، ص٨٢.
(٣٨) **معجم البلدان**، ج١، ص١٠.
(٣٩) **كتاب الجغرافيا**، ص١١٨.
(٤٠) سفرنامة: اقتباسا من:, Fawzi , op-cit , p25.
(٤١) أبو الفدا، م، س، ص٩٩
(٤٢) **الروض المعطار**، ص٨٢. يشير ابن بطوطة إلى ظاهرة التصحر أو زحف الرمال على بعض منازل مدينة البحرين، وإن كان يذكرها في صفة الاحتمال، انظر: **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.
(٤٣) **الروض المعطار**، ص٨٢.
(٤٤) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٨٤.
(٤٥) **أحسن التقاسيم**، ص٩٢؟
(٤٦) المصدر نفسه والصفحة – ياقوت الحموي، م، س، ج٣، ص٣٦ .
(٤٧) ابن المجاور، نقلا عن وليامسون، **صحار عبر التاريخ**، ترجمة: محمد أمين عبد الله، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، العدد ٢، مسقط ١٩٨٢،ص٢٥ .
(٤٨) المقدسي، م، س، ص٩٣.
(٤٩) **معجم البلدان**، ج٣، ص٣٩٣.
(٥٠) وليامسون، م. س، ص٢٨.
(٥١) المقدسي، م، س، ص٩٢.
(٥٢) ياقوت الحموي، م، س، ج٣، ص٣٩٣.
(٥٣) **تقويم البلدان**، ص٩٩.
(٥٤) المصدر نفسه والصفحة.
(٥٥) **أحسن التقاسيم**، ص ٩٣ .
(٥٦) الادريسي: **نزهة المشتاق**، منشورات المعهد الجامعي الشرقي بنابولي، تحقيق مجموعة من الباحثين، طبعة نابولي – روما، ط٢ (دون تاريخ) ، ج٣، ص١٥٥.
(٥٧) ياقوت الحموي، م، س، ج٤، ص٣٩٣.
(٥٨) الحميري، م، س، ص٥٩٢ - البكري، م، س، ج١، ص٣٧٧.
(٥٩) **أحسن التقاسيم**، ص٩٣- أبو الفدا، تقويم، ص٩٩.
(٦٠) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.
(٦١) الحميري، م، س، ص٨٢. – ياقوت الحموي، م، س، ج١، ص٣٤٧.
(٦٢) المصدر نفسه والصفحة.
(٦٣) **نزهة المشتاق**، ج ١، ص٣٨٧.
(٦٤) وليامسون، م، س، ص١١.
(٦٥) المقدسي، م، س، ص٩٢- ياقوت الحموي، م، س، ج٣، ص٣٩٤.
(٦٦) **الروض المعطار**، ص٣٥٤.
(٦٧) ابن سعيد، م، س، ص١١٨.
(٦٨) الحميري، م، س، ص٥٩٢.
(٦٩) ابن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان**، ليدن ١٣٠٢ هـ، ص٣٠. ويستعمل ابن بطوطة نفس المثل بالصبغة التالية: (كجالب التمر إلى هجر)، **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.
(٧٠) ناصر خسرو، ص٩٤.
(٧١) آثار البلاد، ص٢٨٠.
(٧٢) ابن رسته، **الأعلاق النفيسة**، ليدن، مطبعة بريل ١٨٩٢م، ص٨٣- الحميري م، س، ص٨٢ – أبو الفدا، م، س، ص٩٩ . – الادريسي، م، س، ص١٢٣.
(٧٣) الادريسي، م.س، ج١، ص٣٨٧.
(٧٤) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.
(٧٥) الحميري، م.س، ص ٨٢.
(٧٦) المصدر نفسه والصفحة – ابن بطوطة، م.س، ص ٢٩١.
(٧٧) المقدسي، م، س، ص٩٣.

(٧٨) أبو الفدا، م، س، ص٩٩.
(٧٩) المصدر نفسه والصفحة.
(٨٠) وليامسون، م. س، ص٢٨.
(٨١) **أحسن التقاسيم**، ص٩٢. ياقوت الحموي، م. س، ج٣، ص٣٩٣- ٣٩٤ .
(٨٢) أبو الفدا، م. س، ص٩٩.
(٨٣) الحميري، م. س، ص٣٥٤.
(٨٤) **المسالك والممالك**، ج١، ص٤٣٣.
(٨٥) **الأعلاق النفيسة**، ص٨٧.
(٨٦) **أحسن التقاسيم**، ص١٠١.
(٨٧) **الروض المعطار**، ص٦٣.
(٨٨) سفرنامة، ص٩٣-.
(٨٩) رشيد العقيلي: **الخليج العربي في العصور الاسلامية**، ص٢١٥.
(٩٠) القزويني، م.س، ص٢٨٠.
(٩١) وليامسون، م، س، ص٢٨.
(٩٢) المسعودي، **مروج الذهب**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٩٦٤، ط٤،ج١، ص١٤٩.
(٩٣) نفسه، ص١١١.
(٩٤) ابن خرداذبة، م. س، ص٦.
(٩٥) الإدريسي، م، س، ص١٦٢.
(٩٦) الهمذاني: **صفة جزيرة العرب**، القاهرة ١٩٥٢، ص١٣٨- أبو الفدا : م، س، ص٩٧.
(٩٧) **الروض المعطار**، ص٦٣.
(٩٨) أبو الفدا، م. س، ص٩٩ (يستعمل مصطلح يومان) – الادريسي، ج١ن ص٣٨٦.
(٩٩) المصدر نفسه والصفحة.
(١٠٠) **صورة الأرض**، ص٤٥.
(١٠١) البكري، م. س، ج١، ص٣٧٧ – الحميري، م، س، ص٨٢ .
(١٠٢) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١ .
(١٠٣) ياقوت الحموي، م. س، ج٥، ص٢٩٣.
(١٠٤) ابن خرداذبة، م، س. ص٦٠.
(١٠٥) الحميري، م. س، ص٦٣.
(١٠٦) أبو الفدا م.س، ص٨٤.
(١٠٧) المصدر نفسه والصفحة.
(١٠٨) مروج الذهب، ج١، ص١٠٨.
(١٠٩) ياقوت الحموي، م. س، ج٤، ص٣٩٣.
(١١٠) ابن بطوطة، م. س، ص٢٥١.
(١١١) **رحلات ماركوبولو**، الترجمة العربية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٧، ص٣٤٠.
(١١٢) الهمذاني، م.س، ص٢٢٣.
(١١٣) الحميري، م. س، ص١٤ .
(١١٤) المقدسي، م. س، ص٩٢.
(١١٥) ابن بطوطة، م. س، ص٢٦٠.
(١١٦) **آثار البلاد وأخبار العباد**، ص١١١.
(١١٧) أبو الفدا، م. س، ص٩٩.
(١١٨) البكري، م. س، ج١، ص٣٧٦ .
(١١٩) **أحسن التقاسيم**، ص٩٤- ابن حوقل، م، س، ص٤٥- ياقوت الحموي، م، س، ج٣، ص٣٩٣.
(١٢٠) **نزهة المشتاق**، ج١، ص١٥٦.
(١٢١) المقدسي، م، س، ص٣٢- الادريسي، م، س، ص١٥٦- الحميري، م، س، ص٣٥٥.
(١٢٢) برزك: **عجائب الهند**، ليدن – بريل ١٨٨٣ – ١٨٨٦ م، ص٨٥ .
(١٢٣) **رحلة السندباد**، ترجمة د. سامي عزيز، مسقط ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، منشورات وزارة التراث القومي، ص٨٥.
(١٢٤) وليامسون، **صحار عبر التاريخ**، ص٢٢.
(١٢٥) **رحلات ماركوبولو**، ص٣٤١.
(١٢٦) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٨٤.
(١٢٧) البكري، م، س، ج١، ص٣٧٢.
(١٢٨) **الروض المعطار**، ص٨٢.
(١٢٩) **رحلة ابن بطوطة**، ص٥٧٢.
(١٣٠) **الأعلاق النفيسة**، ص١٠٠.
(١٣١) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩٠.
(١٣٢) **نزهة المشتاق**،ج١، ص٣٨٧-٣٨٨.
(١٣٣) ياقوت الحموي، م. س، ج١، ص٣٤٨.
(١٣٤) المصدر نفسه والصفحة.
(١٣٥) المصدر نفسه والصفحة.
(١٣٦) المصدر نفسه، ص٣٤٩.
(١٣٧) المصدر نفسه، ص ٣٤٨.
(١٣٨) **صورة الأرض**، ص٣٣.
(١٣٩) المصدر نفسه والصفحة .
(١٤٠) **أحسن التقاسيم**، ص٩٤.
(١٤١) الإصطخري، م، س. ص١٧١- ابن رسته، م. س، ص٨٣.
(١٤٢) البكري، م، س، ج١، ص٤٩٤.
(١٤٣) الحميري، م، س، ص٨٢.
(١٤٤) **المسالك والممالك**، ج١، ص٣٧٧ – **الروض المعطار**، ص٥٩٢.
(١٤٥) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٨٤.
(١٤٦) **أحسن التقاسيم**، ص٩٦.
(١٤٧) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٨٤.
(١٤٨) المصدر نفسه والصفحة.
(١٤٩) **الروض المعطار**، ص٨٢.
(١٥٠) **رحلة ابن بطوطة**، ص٢٩١.
(١٥١) **صورة الأرض**، ص٣٤.
(١٥٢) ياقوت الحموي، م، س، ج٤، ص٣٩٣.
(١٥٣) نفسه، ج٣، ص٣٩٤.
(١٥٤) نفسه، ج١، ص٣٤٧.
(١٥٥) **صورة الأرض**، ص٣٤.